أزمة التعليم المعاصرة وحلولها الإسلامية

للدكتور زغلول النجار

أزمة التعليم المعاصرة ظهرت آثارها العميقة في جميع المجتمعات، وكان من مظاهرها الميل إلى العنف، وفساد المجتمعات، وخلوها من الثقافة، والتحلل الأخلاقي، إلى جانب حالات الضيق والضياع والكبت والحيرة والأنانية والقسوة، وغير ذلك من الأمراض النفسية والعقلية التي قد تصل بالمرء إلى حد الجنون أو القتل العمد أو الانتحار.

ترى ما أسباب هذه الأزمة؟

سؤال يجيب عليه الأستاذ الدكتور زغلول النجار الذي يرى أن هذه الأزمة لها أسباب كثيرة بعضها أسباب مادية، وبعضها أسباب اجتماعية وبعضها أسباب تربوية، وبعضها أسباب نفسية، وبعضها أسباب أخلاقية.

ترى كيف نتغلب على هذه المشكلة؟

إن بناء الشخصية هو قضية التعليم الأولى – ويجب أن يهتم التعليم بالروح قبل الجسد، وبالتغيير الذي يحدث التعليم قبل الدرجة العلمية التي يمنحها له – قدرة الإنسان على التحكم في نفسه وفي ضبط

تصرفاته، واعتقاده في قيم أخلاقية والتزامه بها، وإيمانه بمثل عليا يحيا لها ويموت في سبيلها، وهي العوامل الأساسية التي تحدد سلوكها، وبالتالى تحدد فلسفة التربية التي يقوم بها أو يتعرض لها. إن العامل الرئيسي في التربية هو "الإنسان" فإن صلح فكره وأهدافه وفلسفته في الحياة، صلح ما يصدر عنه لأجهزة المدنية الحديثة، وإن فسد فسدت معه تلك الأجهزة وبناياتها. ويلاحظ أن الوظيفة الاجتماعية للتربية معقدة غاية التعقيد، فإن كان للمجتمع فلسفة واضحة للحياة وتصور سليم لدور الإنسان فيها، فإن ذلك ينعكس في فلسفة تربوية سليمة. كما يلاحظ أن نظم التعليم المعاصر نظم إعلامية علمانية، وبذلك قصرت دورها على نقل المعلومات واهتمام الطلاب بالحصول على الشهادة فقط.

فقدان الأسوة الحسنة:

والتعليم بوساطة الأسوة الحسنة هو أنجح الوسائل التعليمية.

فقدان التربية الأخلاقية:

القيم الأخلاقية اللازمة لحياة كريمة أصبحت مفقودة والتحلل الأخلاقي يقف وراء أزمة التعليم المعاصرة، كما يقف وراء أزمات العالم المختلفة، والعلم التجريبي وحده يفشل دائما في مواجهة التحديات الأخلاقية، ويفسد رسالة العلم النبيلة ويؤدي إلى شفاء الإنسان ومعاناته، وقد أصبحت مادة غاية لا وسيلة، والتربية الصالحة تحتاج إلى العلم النافع إلى يدعمه الإيمان الشامل الذي يصدقه العمل، وإلى العمل الصالح المنظم

الـذي يحيطـه الخلـق الكـريم، وبـذلك يضـيء العلـم حيـاة الإنسـان، والله سبحانه وتعالى يقول: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (آل عمران : 19).

ومـن سـوء حـظ الإنسـانية في هـذا العصـر أن العـالم الإسـلامي قـد تعـرض إلى شـيء مـن التمـزق في القـرنين الأخـيرين بصـفة عامـة، وحـاول الاستعمار طمس معالم الإسلام وإبعاد المسلمين عن دينهم الصحيح، فتفشت اللادينية، أما عن جهل أو عن فساد أو عن انقياد للشهوات.. والمنهج الرباني مطابق للفطرة الإنسانية، لأنه من صنع الله تعالى خالق الإنسـان، والله تعـالى هـو العلـيم بخلقـه وبطبـائعهم وبأفضـل الوسـائل لتربيتهم، وقد بعث رسوله – صلى الله عليه وسلم – ليزكيهم ويتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون.

والعملية التربوية في الإسلام عملية متكاملة يهتم فيها بالسلوك الشخصي والالتزام بالآداب الخاصة والعامة، وتقوم على أساس أن هناك غيبيات، ومن وراء الدنيا الفانية حياة أخرى خالدة، والله تعالى يجري الأرزاق ويحيي ويميت، وقد وضع نواميس الكون وجعل كل شيء فيه بمقدار، ومنح الإنسان عقلا يحكم به على الأمور ويميز به الخبيث من الطيب ويختار ما يريد – ثم يكافئ المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته، ويمتاز الإسلام بالتوحيد والشمول والدعوة إلى التسامي وإلى مراقبة السلوك ومحاسبة النفس.

فلسفة التربية في الإسلام:

تقوم على التصور الإسلامي الصحيح للإنسان والكون والحياة، ولمعنى ألوهية الله سبحانه وتعالى، فالإنسان مستخلف في الأرض، خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه وعلمه من علمه وأمر الملائكة بالسجود له وفضله على كثير من مخلوقاته، والإنسان الفرد عضو في جماعة تشمل الإنسانية كلها، وهو مرتبط بهذه الجماعات كلها ارتباطا عريقا، ولذلك فإن التربية لابد وأن تكون إنسانية، يستشعر الفرد فيها بالأخوة الإنسانية ويحافظ عليها، ومصدر المعرفة الإنسانية الوحي السماوي المنزل، والعلم المكتسب، والتراث البشري.

والكون للمسلم هو كتاب الله المنظور يرى فيه عظمة الخالق سبحانه وتعالى ودقة البناء وانتظام الحركة وإتقان الصنعة، والعبادة تعني: السعي في عمران الحياة والسعي في طلب العلم، والعدل بين الناس، وتحقيق منهج الخالق سبحانه وتعالى.

والإيمان الراسخ يصدقه العمل الصالح الذي يجعل النفس البشرية نفسا مطمئنة، فالمعارف كلها تلتقي على غاية واحدة هي معرفة الله تعالى والقيام بواجبات الاستحلاف في هذه الحياة، وهديها الكتاب والسنة، ومالها الكون والحياة والإنسانية ومنطلقها التصور الإسلامي الصحيح عن الإنسان والكون والحياة، ولذلك حض الإسلم على النظر في الكون والأخذ بواجبات الخلافة في الأرض.

أسس التربية الإسلامية:

تقوم التربية في الإسلام على الأسس الآتية:

أولا: الإيمان الصادق الذي يجعل الإنسان يتصل دائما بخلافه ويأخد منه منهاج حياته.

ثانيا: العلم النافع الشامل السماوي المنزل والبشري المكتسب، والعلم النافع هو كل علم ومعرفة تزيد الإنسان صلة بالله وتمكنه من القيام بواجبات خلافته في الأرض وعمران الحياة فيها، وإقامة العدل الألهي بين الناس جميعا، وهو مرتبط بالأخلاق الفاضلة، وليس منه القنابل الذرية والجرثومية ولا أجهزة التجسس والتصنت لكشف عورات الناس، ولا المليارات التي تنفق في التسلح بينما الناس يموتون جوعا، ولذلك حض القرآن الكريم على النظر والتفكر والتدبر في كل نواحي الوجود، وقدم للإنسانية دستورا أخلاقيا شاملا تنظمه نظرية توضح كل العناصر الضرورية اللازمة لتكوين فكرة دقيقة عن الطريق الذي يتصور به معنى الأخلاق وعمدها "الالتزام، المسئولية، الجزاء، النية، الجهد"، وذلك يؤدي إلى تربية الإنسان الصالح، لا المواطن الصالح.

والإنسان الصالح هو الذي يعرف ربه ويعبده حق عبادته ويعرف نفسه خليفة الله في الأرض، ويعرف تفاصيل رسالته في الحدود التي وضعها الله تعاليمه، فيقوم بها حق قيام، ويؤمن بأن ذلك كله يستلزم علما

بالكون ما فيه ومن فيه ودراية بأساليب عمران الحياة وازدهارها، فيعمل على دراسة الإنسان بكل جوانبه وعلى دراسة الحيوان والنبات والكون بكل أحواله، وذلك يحتاج إلى التخصص كل حسب ميوله، كما يحتاج إلى التربية الشاملة التي تعده لذلك وذلك يحتاج أيضا إلى:

- الاهتمام بالتربية قبل المدرسة، فالطفل يخضع في سلوكه لتكوينه الداخلي وصفاته الموروثة، وللعوامل الخارجية في البيئة المحيطة به.

- والاهتمام بمراكز تحفيظ القرآن الكريم والعمل على نشرها في مختلف المجتمعات الإسلامية.

- وإلى الاهتمام برجال التربية والدعوة إلى المبالغة في تقديرهم، والاهتمام بمعاهد التربية والعمل على نشرها، وبناء النظم التربوية على أساس من الشمول والاستمرارية، وعدم الفصل بين المعارف حتي لا تعزل العلوم الدينية عن ركب الحياة ومشاكلها وتطورها وإعادة صياغتها، حسب التصور الإسلامي الصحيح.

- جعل المحور الحقيقي للعملية التربوية هو الإنسان، بوصفه مستخلفا لله في الأرض، والإنسان هنا مقصود بطرفيه في العملية التعليمية: المربي والمتربى، فالمربي لابد وأن يتحقق فيه: الإيمان، والعلم، والخلق، والعمل والمتربي لابد وأن يكون فيه الرغبة في التعليم والتفاهم، والمحبة والثقة وخشية الله تعالى، والشعور العملية التعليمية وحسابها في عداد الأعمال التعددية.

- والعمل على جعل التعليم عملية ذاتية حرة غير مقيدة بمناهج محددة.

- والعمل على الفصل بين الجنسين في مراحل التربية المختلفة.

– والعمل على إقامة مؤسسات تربوية إسلامية شاملة بجهود شعبية في جميع المراحل.

– والعمل على وقف المدارس التبشيرية والنشاط التبشري في العالم الإسلامي فذلك سبب الكثير من المآسي في العالم الإسلامي، لأن مهمة النشاط التبشيري هي إبعاد الناس عن الإسلام.

– والعمل على أن يكون التعليم في مختلف مرحله باللغة العربية والاستفادة من كل التجارب البشرية في مجال التربية.

– والاهتمام بالتربية العسكرية للذكور وبالتمريض والتربية المنزلية للفتيات.

– والعمل على إحياء رسالة المسجد، ليكون مكانا للعبادة ومدرسة وجامعة شعبية مفتوحة، ومجلسا للشورى، ومنتدى إسلاميا، ومقرا للقضاء، ومركزا تنطلق منه الجيوش، ودارا للضيافة، ومركزا إعلاميا، وملجأ لمن لاملجأ له.

– والعمل على إقامة المجتمع الإسلامي بكل سماته، ونشر العلم، والترقي بالإنسانية في مدارج الكمال البشري، وفي إقامة المجتمع الإسلامي تحقيقا للنموذج الذي يحتاج الناس إلى رؤيته واقعا حيا بينهم يمكن أن يقتدوا به ويقتفوا أثره، والسير على منهاج التربية في الأساليب، وهي تتميز بالتعدد والتنوع في شمول معجز وتكامل دقيق وتوازن محكم وإيجابية سوية ومثالية واقعية، وربط المسلم في كل ذلك بخالقه سبحانه وتعالي. وتدريب العقل على الاستدلال باستخدام المنطق والمحاكمة العقلية، وعلى المنهج العلمي المبني على الملاحظة والاستنتاج، واستخدام ذلك في التعرف على نواميس

الكون وتسخيرها في عمران الحياة على الأرض وازدهار، واستخدام نتائج العلوم الحديثة في تأكد حاجة الإنسان والكون إلى خالق عظيم وإلى رعايته لهذا الكون ما فيه ومن فيه.

ووصل الناس بالخالق سبحانه وتعالى وإزالة العوائق التي يمكن أن تحول دون ذلك بالدعوة المستمرة إلى طريقه بالحكمة والموعظة الحسنة، سيرا على درب الأنبياء واقتداء بهم، والعمل على تطهير المجتمعات الإنسانية من كل ما يمكن أن يحول دون ذلك.

ولابد من بلورة النظرية للتربية وتشجيع التأليف والترجمة ولنشر في موضوعات هذه المناهج، ووضع خطة زمنية للقضاء على الأمية في العالم الإسلامي، وتطوير أساليب التربية المعاصرة في إطار من التصور الإسلامي الشامل وتيسير تدريس اللغة العربية للمسلمين غير العرب وإصدار دائرة معارف إسلامية شاملة ودورية إسلامية شهرية، وإقامة نماذج للمعاهد التربوية وتكوين اتحاد عالمي للتربويين الإسلامية يكون له مقر دائم وفروع في مختلف العواصم.

بذلك يمكن أن نتغلب على أزمة التعليم المعاصر في البلاد الإسلامية، ونبدأ الخطوات السليمة في الطريق الصحيح، فنستطيع أن نؤدي وظيفتنا في هذه الحياة طبقا لمنهج الله، فنفوز برضوان الله تعالى في الدنيا والآخرة، ونخرج الناس من الظلمات إلى النور {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ

إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)} (يونس 42- 44).